الفلسطيني الصغير :
دراسة في رسوم اطفال النازحين الفلسطينيين

هاني حوراني

مـدخل

في أيلول (سبتمبر) ١٩٦٨ ، عندما بدأنا بجمع رسوم الاطفال في مخيم البقعة(١)، وخلال ثلاثة أشهر من عمليات الجمع والفرز والتصنيف ، كنت قد سجلت مجموعة كبيرة من الملاحظات الشخصية حول التجربة ، وضعتها من باب الفضول الفني والعلمي ، ولم يكن في تقديري انها ستشكل المسودة الاولى لهذه الدراسة ، اذ لم يتوفر لدي بعد اول عرض لهذه الرسوم في مخيم البقعة اية فرصة لتتبع رحلات هذه الرسوم الى عدد كبير من العواصم العربية والاجنبية(٢)، وكنت أتمنى أن تتوافر لهذه الرسوم خلال عرضها في أماكن متفرقة فرص اوسع للتحليل والدرس تساعد على فهم التجربة وتضعها في اطارها الاجتماعي والتاريخي . وقد أسهمت المحاولة التي قام بها صادق جلال العظم في تعريف هذه الرسوم الى عدد كبير من المهتمين ، غير انها بقيت في حدود الغرض التي وضعت من اجله . ولم تتحقق اية دراسة ذات طموح علمي لاستشفاف ابعاد هذه الرسوم ، التي انتجت في ظرف تاريخي هام وتحت وطأة حرارة الهزيمة وطراوتها في اذهان الاطفال الفلسطينيين . ورغم الاحتفاء والدعاية الواسعة التي احاطت هذه الرسوم من قبل الصحافة والمنظمات العربية والعالمية والمقاومة الفلسطينية(٣)، والتي تميزت بطابع سياسي صارخ هي جديرة به ، غير انها بقيت ، اي رسوم الاطفال ، مغطاة ومعالجة من جانب واحد ، وهو الجانب السياسي ، وهو أمر يفقد هذه الرسوم في غياب جهد علمي يتناول الجوانب الاجتماعية والنفسية والفنية والجمالية ميزتها الاساسية ، البراءة والعفوية عندما لا يرى من هذه الرسوم الا وجهها الاعلامي ـ السياسي . وقد اضطرني ذلك الى القيام بما ظننت انه ليس من مهماتي ، فبعد ان اسهمت بدوري في جمع هذه الرسوم وانتقائها وعرضها ، وجدت نفسي مدفوعا الى العودة الى ملاحظاتي الاولية عن التجربة ، وادخل الى عالم اطفال البقعة كناقد ودارس ، بعد أن دخلت عالمهم كواحد يعابث الالوان والمساحات ويعيش مشاكل الخلق الفني ويسقط معهم في الهموم التي تنتاب كل من يقف امام مساحة بيضاء . وربما بت أقل حرجا ، اذ وفرت لي ظروف المعايشة فرص تمثل الجوانب الموضوعية والجمالية في رسوم الاطفال ، وربما كان من الصعب على الاخرين ان يدرك اية حيوية تلك التي تتدفق بهم ، بل واية جراة تحملها اصابعهم وهي تقذف في وجوهنا بأشد الاشياء ايلاما وقسوة . وارجو ان تكون محاولتي هذه ، لتحليل رسوم الاطفال وتقييمها ضمن واقعهم الاجتماعي والانساني ، قد اصابت شيئا من النجاح ، وهذا مرهون بمدى قدرتي على اكساب هذه الرسوم ، كشكل من اشكال التعبير ، يمارسه الاطفال في كل مكان من هذا العالم ، بفهم افضل . اذ بدا واضحا ان هناك العديد من المعايير التي ينظر بها الى هذه الرسوم . وهناك الكثير من المفاهيم الاجتماعية والسياسية والنقدية التي حكمت كل من اتصل بهذه الرسوم ، فهي تقحم على اكثر من مختبر واكثر من منهج ، واحيانا تعامل وتتناول كأعمال فنية ناضجة(٤).

ومن ثم ، وجدت نفسي مضطرا للتنويه بأن هناك حاجة كبرى لان تفهم هذه الرسوم على حالها ، فهي بكل ما تحمل من تعابير تذمر ونزق طفولي ، من